المنهي عنها وتنفير الناس منها .

كما أن هذه الآية قد ضمت بين دفتيها ثلاثة محظورات وهي الظن السيئ والتجسس والغيبة وكلها يجمعها رباط واحد وكلها يفضي بعضها إلى بعض فالظن السيئ يحمل صاحبه على أن يتجسس ويبحث عن العورات أو عما ستر عنه من العيوب حتى يتأكد أنه محق في ظنونه ثم بعد التأكد من ظنه السيئ فإنه يبدأ في الغيبة وهتك أعراض الناس، فهي إذن ثلاثة أمور منهي عنها أوردها الله في آية واحدة لا ينبغي الفصل بينها وحتى إن اختلفت الصيغة الأولى وهي قوله عز وجل: ﴿ اجْتَنِبُوا ﴾ عن الصيغتين الثانية والثالثة وهي: ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾، ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ فإن ذلك من باب التنوع والتفنن في القول وكسر الرتابة ولكن يبقى الجامع المشترك بينها هو النهي والحظر.

* * *

السر في تكرار الأمر بالتقوى

وانظر أيضًا في ذلك إلى قوله عز وجل في أول السورة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ فقد جاء بعده مباشرة قوله عز وجل والذي ختمت به الآية: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١]. ولعلك تلاحظ تكرر الأمر بالتقوى أكثر من مرة في ثنايا السورة الكريمة كقوله عز وجل بعد الاقتتال الذي حدث بين طائفتين من المؤمنين: ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات: ١٠]. وقوله أيضًا بعد النهي عن سوء الظن والتجسس والغيبة: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢].

فالأمر بالتقوى لابد منه، ولابد أن يكون مصاحبًا لتلك النواهي فتقوى الله هي التي تعين المرء على ترك المحرمات. فقوله: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ هو صيغة أمر ولكن

بمعنى النهي أي اتقوا الله واتقوا غضبه وخافوا عذابه وذلك باتقاء فعل هذه المحرمات التي أمرتم بتركها وباجتناب هذه المنهيات التي أمرتم بالابتعاد عنها.

ولعل ذلك يذكرنا بكثرة صيغ الأمر بالتقوى الواردة بين آيات الطلاق في الجزء الثاني من سورة البقرة وكذلك كثرة ورود كلمة التقوى في سورة الطلاق، وما ذلك إلا لأن تقوى الله هي التي تحمل الناس على التزام حدود الله وعدم تعديها. ويروى في ذلك قول الحسن البصري رحمه الله حينما قال له أحد الناس: تقدم لخطبة ابنتي رجلان فأيهما أختار؟ فقال: أكثرهما تقوى لله وأشدهما خشية له فهو إن أحبها أكرمها وإن أبغضها لم يظلمها، وكيف يظلمها وهو يقرأ قوله عز وجل: ﴿**الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ**﴾ [البقرة: ٢٢٩]. وقوله أيضًا: ﴿**وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ**﴾ [البقرة: ٢٣٧].

وبالمثل قوله عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا**﴾ [الحجرات: ٦] فالتبين هنا معناه عدم العجلة والتسرع بقبول نبأ الفاسق فقوله: ﴿**فَتَبَيَّنُوا**﴾ كأنه قال: (لا تتعجلوا) فهو صيغة أمر في معنى النهي وإنما جاءت كذلك لتقوية معنى النهي وجانب الترك والتي جاءت آيات سورة الحجرات لتقوية حرمته في النفوس حتى تفر منه فرارها من المجذوم. وسنزيد هذا الأمر وضوحًا إن شاء الله عندما نتكلم عن الإعجاز في توزيع كلمة التقوى بين آيات سورة الحجرات وذلك عندما نصل إلى تفسير قوله عز وجل: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [الحجرات: ١٣].

وعلى كل حال فإما أن تأخذ بهذا الحساب أو ذاك فبأي طريقة أخذت أجزأتك، غير أني أميل إلى إدخال قوله عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ**﴾ [الحجرات: ١٢]. في صيغ النهي، دون قوله عز وجل: ﴿**قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ**﴾ [الحجرات: ١٧] والخاص بالأعراب وذلك لأن الصيغة الأولى ﴿**اجْتَنِبُوا**﴾ تدخل تحت قوله عز وجل: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [الحجرات ١٣] وجعلنا الله وإياكم من عباده المكرمين يوم يقوم الناس لرب العالمين.

السر في اختيار اسم السورة

وهكذا فقد رأينا فيما سبق أن حجرات النبي ﷺ والتي سميت بها السورة الكريمة عددها تسع وهو كما رأينا نفس عدد النواهي التي جاءت في سورة الحجرات وهو أيضًا نفس عدد الأوامر الواردة في السورة الكريمة والتي جاءت في خدمة وتقوية وتعظيم حرمتها في النفوس، فسورة الحجرات تولي جُل اهتمامها ورعايتها لجانب الترك والنهي والاتقاء، فالنهي أشد خطورة من الأمر كما بين ذلك الحديث المتفق عليه: «**ما أمرتكم به من شيء فأتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه**» وقد شرحنا هذا الحديث بالتفصيل عند تفسير الآية الثانية من سورة «الحجرات».

فتركيز الآيات على جانب الترك والاجتناب أكثر من جانب الطلب والإنشاء كما هو واضح من اختيار لفظ «الحجرات» اسمًا لها وكأن كل نهي من النواهي التسعة إنما هو بمثابة حجرة من الحجرات التسعة اللاتي كن يتنزل فيهن الوحي أو بعبارة أخرى كأن كل نهي ورد في السورة الكريمة يمثل حجرة من الحجرات الشريفة وذلك بجامع الحرمة التي ينبغي أن تكتنف كلا من «النواهي» و«الحجرات» تلك الحرمة التي لا ينبغي أن تمس أو تستباح، فما نهى الله عنه إنما هو حدود ينبغي ألا نقترب منها أو نحوم حولها أو نخترقها: ﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا**﴾ [البقرة: ١٨٧]. وقوله: ﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا**﴾ [البقرة: ٢٢٩]. وكذلك حجرات النبي ﷺ فهي حمى لا ينبغي أن يوطأ أو يداس بل ينبغي أن تبقى حرمته حية في القلوب وماثلة أمام الأبصار.

وإننا لم نعدُ الحقيقة عندما قلنا إن هذه الحجرات سواء أكانت بناءً من لبنات أو أحجار، أو كانت ثلة من الأوامر والنواهي والمحرمات إنما هي رمز لهذا الدين وتجسيد لتعاليم الإسلام ولا سيما أنه قد ورد فيها بعض النواهي التي لم ترد في

غيرها من سور القرآن كالنهي عن التجسس واغتياب الناس وكأن كل نهي ورد في هذه السورة إنما هو حجرة محجورة ينبغي ألا تمس أو تستباح أو درة مكنونة ينبغي أن تحفظ وتصان.

ولذلك لا تجد اسمًا لهذه السورة يُعبِّر عن معانيها العظيمة أنسب من الاسم الذي سميت به وهو لفظ «الحجرات» ففيه يتجلى الإعجاز ولذا تحدى الله به الإنس والجن في كل زمان ومكان، وكل محاولة للإتيان بمثل هذا القرآن فإن مآلها إلى الفشل والإخفاق ويبوء أصحابها بالخزي والخسران فما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله.

ولو أنك سألت أحداً من الناس أن يختار اسمًا لسورة الحجرات وهو لا يعرف ما سماها به الله لما خطر على باله أن يختار لها اسم الحجرات مع أن هذا الاسم لهذه السورة هو أنسب الأسماء التي تعبر عن المعنى العام الذي تهدف إلى بيانه آيات السورة والذي من أجله نزلت تلك الآيات. فأصل كلمة الحجرات يتفق تمامًا مع أصل ما ورد في هذه السورة من كلمات مثل ألفاظ العقل والصبر والرشد والصدق والتقوى كما بيناه عند شرح وتفسير ما سبق من الآيات.

* * *

مزيد من الأسرار في لفظ الحجرات

وحسبك أن تنطق بكلمة «الحجرات» لترى هذا التناسب والاتفاق وهذا التناغم والانسجام. فحرف «الحاء» وحرف «الجيم» من كلمة «الحجرات» مضمومان فأنت حينما تنطق بالضمة تتقلص الشفاه وتأخذ شكل الاستدارة والانقباض بخلاف «الفتحة» أو «الكسرة» حيث تنفرج الشفاه وتأخذ في الاتساع والانفراج.

كما أن حرف «الحاء» لم يكن وحده هو المضموم بل كذلك حرف «الجيم»

فكلاهما مضموم بل الضمتان متتاليتان وإنما ذلك؛ لتصوير وتجسيد معنى الانقباض والانكماش الذي ارتسم فوق الشفاه ولإبراز جانب التحرز والاتقاء والذي تدور حوله آيات سورة «الحجرات» ولو قال: «الحجرة» بلفظ المفرد لكانت ضمة واحدة على حرف «الحاء» ولضاع علينا المعنى المراد والذي عبرت عنه لفظة الحجرات التي بها ضمتان متتابعتان كما أنه لو استعمل القرآن كلمة «الحُجَر» وهي أيضًا مثل كلمة «الحُجُرات» جمع حُجْرة، ولكن الفرق بينهما أن كلمة «الحُجَر» بضمة واحدة، وهي التي على حرف الحاء فقط، ولو فعلنا هذا لأضاع علينا هذا الاستعمال الفائدة التي عبَّرت عنها كلمة «الحُجُرات».

كما أنه لا يجوز استعمال جمع التكسير «حُجَر» بل كان استعمال جمع المؤنث السالم «الحُجُرات» والذي سلم أصله من الكسر والتغيير وذلك لأن اهتمام آيات السورة ينصب على مراعاة القواعد لا كسرها، وعلى الوقوف عند الحدود.

كما أن لفظ الحجرات بما فيه من مدٍّ في حرف «الراء» يتماشى أيضًا مع المد في حرف «الراء» في لفظ «وراء» والذي جاء مباشرة قبل لفظ الحجرات وهو قوله عزَّ وجلَّ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ وكل هذا يفوت علينا لو استعملت كلمة «الحُجَر» بدلاً من كلمة الحجرات.

كما أنه لم يستعمل لفظ «البيوت» بدلاً من لفظ «الحُجرات» إذ أن لفظ «البيوت» يعبر فقط عن البيتوتة أي: مجرد التواجد في البيت ليلاً، بينما لفظ الحجرات كما بينا يعبر عن الكف والمنع والحظر، مما يتلاءم تمامًا مع الموضوع الأساسي للسورة ويعبر عن هدفها الذي أنزلت من أجله.

وأيضًا تشارك الشفتان المضمومتان عند نطق كلمة «الحُجُرات» في رسم صورة المؤمنين الأتقياء الذين يقفون عند حدود ما حرم الله بل والذين يتورعون ويتقون الشبهات وذلك بخلاف صورة أهل التجاوز والعدوان والبغي والطغيان وغير ذلك من صور الانتفاخ والانتفاش.

ولذلك فسورة «الحجرات» ترسم لنا صورة المؤمن وموقفه إزاء شرع الله فهو ملتزم بما في هذا الدين من أوامر ونواهٍ وأحكام وهو وَقَّاف أمام حدود الله ـ وليس صورة المتقدم أو المجترئ على الحرمات ولذلك بُدئت السورة بالنهي عن التقدم والاعتداء والافتيات فقال عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾ [الحجرات: ١]. ثم ختمت هذه الآية بالأمر بتقوى الله عز وجل: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ [الحجرات: ١].

فالتقوى خوف ووجل ووقوف عند الحدود وامتثال للأوامر والمنهيات وذلك بخلاف ما هو عليه أهل الجرأة والاندفاع والتعدي على المحرمات، وانظر في ذلك إلى قوله عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ**﴾ [المائدة: ٩٥] ثم انظر إلى توكيد هذه الحرمة في الآية التي بعدها ﴿**وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾ [المائدة: ٩٦]. فما دمت قد أحرمت بالحج أو العمرة فيجب عليك اتقاء ما حرم الله وأن تترك الصيد وأن تتحاشاه فالصيد فيه حركة وانتشار وفيه اقتناص واقتحام وهذا يتنافى مع معنى التقوى والاجتناب والاحتراز.

ولذلك ففي الآية التي قبل هاتين الآيتين مباشرة قال عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [المائدة: ٩٤] فهو ابتلاء إذن وامتحان إذ كانت تغشاهم الحيوانات في رحالهم تغريهم بصيدها والإمساك بها ولكنهم لم يفعلوا وأحجموا بسبب تقواهم وخوفهم من الله كما قال عز وجل: ﴿**لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ**﴾ ولذلك ختمت الآية بقوله: ﴿**فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾. أي: فبعد أن تكلم عن أهل الخوف والتقوى توعد من بغى وتعدَّى، مثل اليهود الذين نُهوا أيضًا عن الصيد يوم السبت فكان منهم العدوان والبغي قال عز وجل: ﴿**وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ**

تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الاعراف: ١٦٣].

إذن فهو ابتلاء من الله ولم ينجحوا في هذا الابتلاء بل احتالوا على شرع الله وكان منهم الفسوق والعصيان ولذلك ختم الله الآية بقوله: ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الاعراف: ١٦٣]. والفسوق ـ كما سنذكر بالتفصيل في الآية التالية إن شاء الله ـ إنما يأتي في القرآن في مقابل التقوى فهو خروج وانسلاخ وتفلت وعدم التزام، بخلاف التقوى فهي خوف وخشية وانضباط واحتياط.

ثم وبعد أن تضم شفتيك عند نطق «الحاء» و«الجيم» من لفظ «الحُجُرات» وذلك لتأخذ الشفاه شكل الضم والانقباض تصويراً وتجسيداً لمعنى التقوى والاحتراز فإن ذلك بمثابة إقرار منك بالوقوف عند حدود الله بسبب الخوف من الله الذي يعتري القلب فيجعل صاحبه يبتعد عما حرم الله وعندئذ يأتي الفرج من عند الله ليسرِّي عن هذا القلب المشفق من غضب الله ولذلك ختم لفظ «الحجرات» بالمد بالألف حيث يحدث انفراج للشفتين بعد التقلص والانقباض الذي أصابهما عند النطق بالضمتين المتتابعتين وهو تصوير وتصديق لقوله عز وجل: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ـ٣].

وكذلك فإن هذه الآية التي ذكر في بدايتها لفظ «الحجرات» للدلالة على معاني الاحتراز والاحتشام فإنها قد خُتمت بقوله في الآية بعدها: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ٥]. وهو سلوى وبشرى لكل من يتأدب عند «الحجرات» ويقف عند حدود الله ويلتزم بما في الشرع من أحكام ـ بأنه سيدخل في معية أهل العفو والرحمة والغفران.

كما أنه إذا كانت الضمتان في أول حرفين من حروف لفظ «الحجرات» رمزاً لجانب الترك والاتقاء في دين الله فإن المد بالألف في آخر لفظ «الحجرات» إنما هو رمز لعلو هذا الدين وشموخ تعاليمه وما فيه من مبادئ وأخلاق وآداب فهو كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن الله.

الدين كله لله

كما أننا نلاحظ أن لفظ «الحجرات» لم يأت منسوبًا إلى الرسول ﷺ مع أنها حجراته وذلك بخلاف لفظ «البيوت» الذي جاء منسوبًا إليه كما في قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ [الاحزاب. ٥٣] أو كما جاء منسوبًا إلى أزواجه كما في قوله عزَّ وجلَّ ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الاحزاب: ٣٣]، بل جاء بلفظ «الحجرات» مجردًا من كل نسب وإضافة بل جاء النسب في الفعل قبلها حيث جاءت كاف الخطاب للرسول ﷺ مقرونة بالفعل في قوله عز وجل: ﴿يُنَادُونَكَ﴾ [الحجرات: ٤] ولم يقل: (إن الذين ينادون من وراء حجرات النبي) بل جاء بلفظ «الحجرات» خلوًا من كل نسب وإضافة وذلك لتكون هذه الحجرات رمزًا خالصًا لهذا الدين الباقي في الأرض إلى قيام الساعة وكذلك لبيان أنها ليست مجرد حجرات مادية تكون عرضة للهدم أو للسقوط والانهيار بل باقية ما بقي ليل أو نهار.

فهذا الدين إنما هو دين الله وليس دين «محمد» أو «موسى» أو «سليمان» أو دين أحد من الرسل والأنبياء وحسبه أنه دين الإسلام: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران: ١٩]. فهو ليس أديانًا متعددة بل دين واحد وإن اختلفت الشرائع والمناهج كما قال عز وجل: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]. فإن اختلفت الفروع فقد اتحدت الأصول والمصادر.

وأما قول الله عز وجل في سورة «الكافرون»: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] أي: ولي ديني منسوبًا إلى الرسول ﷺ وإنما قال ذلك في معرض المحاجة مع الكافرين، وذلك في بداية الدعوة الإسلامية فالسورة مكية ولكنه في سورة «النصر» المدنية وهي من آخر ما نزل من القرآن والتي جاءت بعد سورة «الكافرون» في ترتيب المصحف قال عز وجل: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ

﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: ١، ٢]، فلم يقل: (ورأيت الناس يدخلون في دينك) بل قال: ﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ فقد فتحت مكة وأصبحت دار إسلام ولم يعد الناس يعذبون أو يفتنون في دينهم بل أصبح الدين كله لله.

كما إن الله لا يريد أن يربطنا بأشخاص الأنبياء والمرسلين - عليهم أفضل الصلاة والتسليم - وإنما يريد أن يكون ولاؤنا لهذا الدين ولتعاليم هذا الشرع الحنيف فالرسل بشر يتعرضون للموت والفناء ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام. فالله لا يريدنا أن نتعصب للأشخاص مهما علا مقامهم بل يريدنا أن نتمسك بمبادئ وقيم الإسلام الخالدة.

ولقد كانت أحداث غزوة «أحد» وما أشيع فيها من أن رسول الله ﷺ قد قتل درسًا عمليًّا في ذلك، وقد استوعب الصحابة - رضي الله عنهم - هذا الدرس جيدًا فبعد وفاة الرسول ﷺ وانتقاله إلى الرفيق الأعلى لم يقعد الصحابة عن الجهاد أو يتقوقعوا في جزيرتهم بل انساحوا في الأرض ينشرون دين الله عز وجل في كل مكان فقد فهموا أنه إن كان محمد ﷺ قد مات فإن الله حي لا يموت، وجعلوا نصب أعينهم قول الله عز وجل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. ولهذا أيضًا أرَّخ عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بهذا الحديث العظيم الذي غير مجرى التاريخ ألا وهو حادث الهجرة النبوية الشريفة ولم يؤرخ بميلاد أو وفاة الرسول ﷺ لأنه عرف طبيعة هذا الدين وفهم رسالة المسلمين ومسئوليتهم أمام رب العالمين.

ولعلك تلاحظ أيضًا أن لفظ «الحجرات» جاء جمعًا مع أن الأعراب وقفوا أمام حجرة واحدة من الحجرات الشريفة وهي التي كان النبي ﷺ موجودًا فيها وأخذوا ينادونه من ورائها ومع ذلك آثر السياق الكريم في الآية أن يجيء لفظ «الحجرات» في صيغة الجمع لا في صيغة المفرد لأنه يتكلم ويشير إلى مبادئ الدين كلها ويرمز

إلى تعاليم الإسلام جميعها.

فالحجرات كما أسلفنا تمثل نواهي هذا الدين وأوامره ولذلك وبعد أن ذكر تلك الأوامر والنواهي والتي جاءت في أعقاب النداءات الخمسة لجماعة المؤمنين قال بعدها: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] أي: من اتقى هذه النواهي كلها وليس من يختار منها ما يشاء أو ينتقي منها ما يتناسب مع هواه ويترك ما يشق عليه فتعاليم الدين تؤخذ ككل وحتى لا نكون مثل اليهود الذين قال الله في شأنهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥]. بل نكون كمن قال الله فيهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]. ولذلك قال الرسول ﷺ في الحديث المتفق عليه: «**وما نهيتكم عنه فاجتنبوه**» أي: فاجتنبوه بالكلية وإياكم والتخليط أو التبعيض أو سياسة الترقيع والجمع بين المتناقضات وإتيان ما حرم الله.

فالحجرات كلها كان يتنزل فيها وحي السماء وتتلى فيها آيات القرآن ولذلك قال الله عز وجل مخاطبًا نساء النبي ﷺ: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [الاحزاب: ٣٤] أي: في بيوتكن كلكن أو كلها أي: في الحجرات كلها والبيوت جميعها وليس في بيت واحد أو حجرة دون أخرى.

وفاعل: ﴿يُتْلَى﴾ يرجع إلى رسول الله ﷺ وإلى نسائه - رضي الله عنهن - بل ويرجع قبل ذلك إلى جبريل عليه السلام والذي كان يتلو آيات القرآن والرسول ﷺ يسمع حتى إذا فرغ يتلوها من بعده.

وقد كان النبي ﷺ يبيت كل ليلة في أحد بيوت نسائه من تلك الحجرات الشريفة لكنه كان يقضي معظم ليله في صلاة وذكر ومناجاة ودعاء وتلاوة لآيات القرآن الكريم كما أمره ربه في قوله عز وجل ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [المزمل: ٢] وعن أم سلمة - رضي الله عنها - كما في حديث البخاري في «صحيحه»: «أن النبي ﷺ استيقظ ليلة

فقال: «من يوقظ صواحب الحجرات (وهن نساؤه) فرب كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة». وكانت السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ تشفق عليه حينما كان يقوم يصلي من الليل حتى تتشقق قدماه الشريفتان فتقول له: يا رسول الله لم تصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فيقول لها: «أفلا أكون عبداً شكوراً».

كما أن قوله عز وجل: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ فآيات الله هي هذا القرآن الكريم أما «الحكمة» التي أمرن بذكرها ونشرها فهي: سنته الشريفة فقد حفظ نساء النبي ﷺ أحاديثه الشريفة ما كان فيها من سنن قولية وفعلية وقمن بنقلها وتبليغها إلى الناس نوراً تتوارثه الأجيال.

وهكذا بقي هذا العلم النبوي الشريف في الأمة محفوظًا في بطون الكتب والصحاح وفي صدور الرجال نبراساً ينير الدرب ويصحح لنا المسار ويقودنا إلى بر الأمان.

وهكذا كانت الإشارة إلى الحجرات، كل الحجرات، فهي رمز لهذا الدين وتجسيد لتعاليم الإسلام وما يمثله من مبادئ وأخلاق وآداب، ولعل ما ذكرناه يلقي شعاعًا من الضياء نتبين من خلاله السر في اختيار هذا الاسم العظيم الذي سميت سورة «الحجرات». ولقد كانت حياة النبي ﷺ وأقواله وأفعاله بل وكل تصرفاته تجسيداً حيًّا لتعاليم هذا الدين، ولذلك لَمَّا سُئلت السيدة عائشة أم المؤمنين عن خلقه ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن». فهي لم تجد وصفًا أدق ولا أصدق من هذا الوصف الجامع فقد كان بحق قرآنًا يمشي على الأرض، ولذلك وصفه ربه عزَّ وجلَّ في محكم التنزيل بهذا الوصف الكريم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، والله الموفق والمعين والهادي إلى سواء السبيل.

* * *

اللهم ارزقنا شفاعته

وهكذا وبعد هذه الجولة الإيمانية مع هاتين الآيتين من سورة «الحجرات» فقد رأينا العلاقة وثيقة بين لفظ «الحجرات» الوارد في الآية الرابعة من السورة وبين لفظ العقل في نفس الآية، وبين لفظ «الصبر» في الآية التي بعدها وهي الآية الخامسة من السورة الكريمة. وبعد أن بينا اشتراك هذه الألفاظ في الأصل اللغوي الذي اشتقت منه - نذكر شيئًا مما قيل في فضل العقل وفي فضيلة الصبر لنختم به تفسيرنا حول هاتين الآيتين الكريمتين اللتين توجبان الأدب مع رسول الله ﷺ فالله يغار على حرمات رسول الله ﷺ ويعرفنا عظيم قدره لنعرف له حقه ولنقف عند حدود الأدب الواجب لشخصه الكريم. يقول علي - رضي الله عنه - وهو يعبر عن نعمة العقل الذي هو مناط التكاليف: «يا رب من أعطيته العقل فماذا حرمته؟ ومن حرمته العقل فماذا أعطيته؟». وانظر إلى قوله في الصبر: «الصبر ضياء لا يخبو ومطية لا تكبو وسيف لا ينبو» فالصبر جماع الفضائل فما من فضيلة إلا وللصبر فيها نصيب وافر ولذا قيل: «الشجاعة صبر ساعة». وانظر إلى قوله - رضي الله عنه - في الأدب «الأدب يغني عن النسب».

وهو ما عبر عنه الشاعر بقوله:

كن ابن من شئت واكتسب أدبًا ... يغنيك محمـوده عن النسب

وانظر إلى قول القائل: «من أساء الأدب على الباب ردَّ إلى سياسة الدواب» أي يساس كما تساس الدواب أي بالسوط والعصا وكأنه يعني هؤلاء الأعراب الذين وقفوا على أبواب حجرات النبي ونادوه بأعلى أصواتهم ولم يرعوا حرماته ولم يقفوا عند حدود الأدب اللائق برسول الله ﷺ ومع ذلك رفق بهم وحلم عليهم لأنه يعلم أنهم فعلوا ذلك عن جهل والجاهل يعلم ويؤدب وينظر إليه بعين الشفقة

والرحمة ولذلك تغاضى عما حدث منهم ولم يؤاخذهم رب العزة ولذلك ختمت الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ٥].

فالأدب مع رسول الله فرض على المؤمنين فقد جعل الله الاستئذان من مجلسه الشريف علامة على الإيمان قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٦٢].

وقد ذكرنا من قبل كيف نهى الله في سورة «الأحزاب» أن يدخل أحد بيوت النبي إلا بعد أن يؤذن له فإذا طعموا فليتفرقوا ولا يمكثوا للحديث عنده فإن ذلك يضايقه ويؤذيه.

وقال القرطبي في التعقيب على هذه الآيات: هذا أدب أدب الله به الثقلاء.

وصدق عبد الله بن المبارك في قوله: «نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم» ولذلك فضل الأدب عن العلم ويحسن بنا في هذا الموطن أن نذكر رد العباس عم النبي ﷺ حينما سئل: أيهما أكبر (في السن) أنت أم الرسول ﷺ فمنعه الحياء والأدب أن يقول أنا أكبر منه فقال: «هو أكبر مني غير أني ولدت قبله».

اللهم ارزقنا الأدب مع رسول الله ﷺ. اللهم إنا آمنا به ولم نره. اللهم فأدخلنا مدخله وأنزلنا منزله وأوردنا كوثره واسقنا من يده المباركة شربة هنيئة مريئة لا نظمأ بعدها أبدًا. اللهم متعنا برؤيته وقربنا من حضرته واحشرنا في زمرته وأسعدنا بشفاعته وأحينا على سنته وتوفنا على ملته. اللهم آمين.

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ [الحجرات: ٦].

أهمية التثبت في نقل الأخبار

بعد أن أرست سورة «الحجرات» قواعد التعامل مع شرع الله والالتزام بحدود الله وأوضحت الآيات الأولى منها الآداب التي ينبغي للمؤمن أن يتأدب بها في حضرة رسول الله ﷺ والقواعد التي يتعامل بها مع السنة النبوية الغرَّاء بدأت السورة بوضع منهج متكامل للمجتمع الإسلامي بحيث تصان فيه حرمات الناس وبدأت بمبدأ التبين والتثبت في نقل الأخبار وعدم الانسياق وراء الأراجيف والإشاعات وهو قوله في هذه الآية: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ** ﴾[الحجرات: ٦].

فقد رأينا في الآيتين السابقتين كيف عاب الله على الأعراب تعجلهم وعدم صبرهم. وقد استعمل القرآن «العجلة» في مقابل «الصبر» وذلك في قوله عزَّ وجلَّ ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ** ﴾ [الاحقاف: ٣٥]، وفي هذه الآية ينهى المؤمنين عن التعجل والتسرع في سماع الأخبار ونشرها دون تبين ولا سيما إن جاءت من جهة فاسق فالذي فسق عن أمر ربه لا يتورَّع عن الكذب والافتراء والوقيعة بين الناس.

ومعنى الفسق: الخروج والانسلاخ، من قولهم: فسقت الرُطبة، إذا خرجت من قشرتها ومن مقلوب فسق كلمة فقس نقول فقست البيضة إذا انكسرت قشرتها وخرج ما بداخلها ثم استعمل الفسق في الخروج عن القصد والانسلاخ عن الحق، أو بعبارة أخرى هو الخروج من الطاعة إلى المعصية بل الخروج من أحكام الدين بالكلية كما سيتبين لنا بعد قليل عند الكلام عن الفسوق في القرآن.

والعلة التي جعل الله من أجلها التبين هي الفسق كما قال عز وجل: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦]. فإن لم يوجد فسق فليس هناك ما يدعو للتثبت، فالمؤمن ينبغي أن نُحْسن به الظن فجانبه مأمون ولا يخشىٰ من جهته السوء. فالأصل في المؤمن أن يكون موضع ثقة وأن يؤخذ بقوله وتقبل نصيحته وذلك بخلاف الفاسق فهو ينبغي لفسقه أن يكون موضع شك وتهمة وأن يبحث في أمره حتىٰ يتبين لنا صحة خبره.

ولذلك لم يقل ربنا عز وجل: (إن جاءكم رجل بنبأ فتبينوا) بل قال: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ﴾ لأنه لو قال: (إن جاءكم رجل) فإننا لا نعرف لماذا أمرنا بالتثبت أو التبين؟ كأن نقول مثلاً (عوقب الرجل) فأنت لا تعرف لماذا عوقب أو ماذا فعل حتىٰ يعاقب ولكن إذا قلت: (عوقب المسيء أو الجاني) فإننا عندئذٍ نعرف لماذا عوقب فقد عوقب بسبب إساءته أو جنايته.

ولذلك قال الله عز وجل: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ فاللفظ محدَّد ومعلَّل، فعلة التبين هي الفسق الذي هو مظنة الكذب والافتراء فينبغي أن نتوقف حتىٰ نتأكد من صحة ما جاء به الفاسق من أخبار. وهناك قراءة لحمزة والكسائي وهما من القُرَّاء السبع المتواترة (فتثبتوا) بدلاً من ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ فهي قراءة سبعية ومتواترة، والتبين والتثبت معناهما واحد ومتقارب.

علم الجرح والتعديل

والتعبير بلفظ «الفاسق» يدل على قبول خبر العدل الواحد ولا يشترط التواتر وإلا بطلت الكثير من الأحاديث والأخبار الصحيحة إذ لو رددنا خبره لسوينا بينه وبين الفاسق ولخلا التقييد بذكر الفاسق من الفائدة.

ولذلك يقبل خبر المؤمن إلا إذا رأينا بينه وبين من يخبر عنه حسداً أو حقداً أو

عداوة، ولذلك لا تقبل شهادة خصم على خصمه وذلك لوجود التهمة إذ هو متهم بسبب ما بينهما من العدواة. وكذلك لاتقبل شهادة المتهم بسبب المحبة كشهادة الوالد لولده أو الولد لوالده، وأيضًا شهادة الزوجين أحدهما للآخر لأن الزوجية مظنة التهمة إذ الغالب فيها المحاباة وتحيز كل طرف للآخر. ولذلك رفض علماء الحديث قبول رواية مجهول الحال وذلك لاحتمال كذبه فالجرح عندهم مقدم على تعديل الرواة وتزكيتهم وهذا من باب التحفظ والتثبت والأخذ بالأحوط والأسلم فهذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها هي نص ينبني عليه علم «الجرح والتعديل» أو ما يُعْرَف «بعلم الرجال» وهو يبحث في أحوال الرواة وضوابط قبول أو رد الأخبار، وهو: علم وضع أصوله وقواعده المسلمون منذ عدة قرون وهو مفخرة لهم على مر العصور إذ لم يصل إلى هذا المستوى أمة من الأمم أو يبلغ هذا المرتقى شعب من الشعوب، فهو علم ينم على ما كان عليه المسلمون من رجاحة العقل ونضج الفكر والدقة، والفطنة و الحيدة والكياسة والنزاهة، والإنصاف والموضوعية.

وكما أن مجهول الحال ترد روايته فكذلك ترد شهادته فقد روى البغوي بإسناد حسن أن رجلاً شهد عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال عمر: لست أعرفك، ائتني بمن يعرفك.

فقال رجل من الحضور: أنا أعرفه فقال له عمر: بم تعرفه؟ هل هو جارك الأدنى الذي تعرف مدخله ومخرجه؟ قال الرجل: لا قال عمر: فهل عاملته بالدرهم والدينار اللذين يستدل بهما على الورع؟ قال: لا قال: فهل رافقته في السفر الذي يسفر عن أخلاق الرجل؟ قال الرجل: لا، فقال عمر: إذن لست تعرفه ثم قال للرجل: ائتني بمن يعرفك.

وكذلك لا تُقْبل شهادة من عُرف بسوء الحفظ وكثرة الغلط والسهو وإن كان معروفًا بصلاحه وذلك لقلة انتباهه واحتياطه ولفقد الثقة في كلامه وأخباره ويلحق به المغفل ومن كان على شاكلته فالشاهد ينبغي أن يتصف بالحفظ والضبط.

هل يرد نبأ الفاسق على الإطلاق؟

ولكن لماذا لم نؤمر برد خبر الفاسق مطلقًا بل أُمرنا بالتبين والتثبت قبل قبول خبره؟

والجواب: أن بعض الفساق قد يصدقون في أخبارهم وشهادتهم ويكون فسقهم من جهات أخرى، فإذا قامت أدلة وقرائن على صدقهم فإننا نعمل بدليل الصدق ولو أخبر به من أخبر، لأننا لو رددنا خبر الفاسق على الإطلاق مع غلبة الظن بصدقه لتعطلت مصالح الناس ولضاع الكثير من الحقوق.

فخبر الفاسق: إذا تعلق بشخصه كأن أقر على نفسه بحق أو دين لغيره فعندئذٍ يقبل خبره، فقد تجد شخصًا معروفًا بفسقه ولكن إذا استحلفته بالله فإنه يشهد على نفسه ويعترف أنه أخذ من فلان دينًا فهنا لا ترد شهادته بل تقبل أما إذا تعلق الخبر بغيره فعندئذ لابد من التبين لأن احتمال الكذب وارد فهي أمور يكون للنفس فيها حظ وافر فالاحتياط عندئذ واجب.

ولذلك فلا ينبغي معاملة الخبر الذي نسمعه من الفاسق كأنه أمر مسلم به بحيث ننزله منزلة العلم الحاصل لنا بالرؤية أو العيان أو منزلة الحقائق التي لا تقبل الشك أو الارتياب مع أن احتمال كذبه وارد بل راجح ولذا ينبغي أن يعامل بتحفظ واحتراز.

احذروا الفسّاق

كما أن قبول خبر الفاسق دون تثبت يمنحه جواز العبور إلى داخل حصوننا ويعطيه شرعية التواجد بين صفوفنا وهو قلب للأوضاع فقد جعلنا الفاسق في مكان الصدارة والتوجيه يسمع قوله ويقتفى أثره، وينبني على كلامه بعض المواقف والأفعال ويترتب على أقواله بعض النتائج والآثار وهو ما يتنافى مع مقتضى الإيمان ولذلك

كرر الله النداء في هذه الآية بـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦] ليذكرنا بأن الإيمان والفسوق نقيضان لا يجتمعان.

ولذلك ينبغي للمؤمن أن يستعين على ضبط أموره باليقظة والتحري حتى يصون نفسه من تلاعب اللئام والفساق واجترائهم عليه فمن كان ذا يقظة وانتباه واحتياط هابه النمَّامون والوشاة بل وترددوا في نقل الأخبار الكاذبة له.

ولكن من أسلم أذنه لكل من هب ودب وفتح قلبه لكل قائل أو ناقل أو ناعق لاختلط عليه الأمر والتبس عليه وجه الحق ولفتح على نفسه وعلى المؤمنين باب فتنة وشر ولساعد على إشاعة الفتن والقلائل التي تزعزع مجتمع المسلمين الآمن.

ولذلك نهانا الله عن الجلوس والاستماع إلى أهل الفسق والفساد، قال عز وجل: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]. وعبر عن نفس المعنى بعبارة أخرى فقال عز وجل: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

وقال أيضًا: ﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود: ١١٣]. وقال أيضًا: ﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨] وقال أيضًا: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩]. وأمرنا في المقابل أن نحبس أنفسنا مع المؤمنين المخلصين ولو كانوا من أهل الفقر والمسكنة قال عز وجل: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨].

ولقد وصف الله الصحابة رضي الله عنهم في آخر آية من «سورة الفتح» وهي

السورة التي جاءت في ترتيب المصحف قبل «سورة الحجرات» بقوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]. فوصفهم ربهم بأنهم أقوياء يرهبهم أعداؤهم من الكفار وأهل النفاق، وذلك حتى لايطمع فيهم عدوهم أو يتجرأ فاسق على مخاطبتهم بنبأ كاذب يثير الفتنة بين صفوفهم.

فلا ينبغي للصحابة وقد بلغوا هذا المستوى الرفيع من القوة والإيمان أن ينزلوا عن هذه الرتبة العظيمة أو ينحطوا عنها بل يحافظوا عليها وليحذروا من الانتكاس والارتداد بعد أن سَمَوا إلى هذا المقام ومنحهم ربهم هذا الوسام وليحذروا من النقصان بعد الكمال والتمام فهم مضرب الأمثال والقدوة التي ترنو إليها الأبصار وتتطلع إليها الأجيال في كل زمان ومكان.

وهذا هو شأن المؤمنين الأتقياء في كل الأعصار والأمصار لايطمع فيهم الفساق ويعمل لهم ألف حساب فقد زادتهم التقوى مهابة ومنحهم الإيمان مناعة فلا يستطيع فاسق أن يفرق جمعهم أو يخترق حصونهم أو ينال منهم أي منال. لا تميل أفئدتهم إلى مجالس الزور والبهتان ويربأون بأنفسهم أن تكون أودية يلقى فيها مثل هذا الغثاء ولا يجعلون آذانهم أوعية يصب فيها تلك الافتراءات وإذا مروا بأهل الفسوق والعصيان مروا مرور الكرام فقد نهوا عن اتباع سبيل أهل الفساد وأمروا باتباع سبيل من أناب إلى الله قال عز وجل: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢]. وقال في مقابل ذلك: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥].

ولا يؤاخذ المسلم على سماعه لخبر الفاسق فقط بل يؤاخذ على تسليمه بما سمع دون تمحيص أو تثبت ثم ما يترتب على ذلك من الأضرار التي تلحق بالآخرين مما لا يحمد عقباه ولذلك قال: ﴿أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]. أي: تصيبوا قومًا أبرياء بسوء وأنتم تجهلون فتندموا على ذلك أشد الندم وتقولوا: يا ليت هذا لم يقع أو يا ليته ما حدث.

* * *